

حياتي.. من النكبة إلى الثورة (سيرة ذاتية)

نبيل شعث

القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٦. ٥٥٠ صفحة.

وُلد

نبيل شعث في صدف
في سنة ١٩٣٨ لأب
فلسطيني من غزة وأم لبنانية
هي سميحة أحمد التنير
البيروتية، وقد شارك الوالد
أبو علي شعث، الذي يعود
نسبه إلى قبيلة طي من
اليمن، في ثورة ١٩٣٦.
ويفاخر الكاتب بالعائلة
الممتدة والمنتشرة بين مصر
وفلسطين وبنضالات أبنائها،
ويروي سيرة والده المتعلم
في الجامعة الأميركية في
بيروت، ومدير المدارس
لاحقاً، وسيرة والدته
وعائلتها، ومعهما نشهد
وحدة حال العرب والمسلمين،
وسهولة تنقل العوائل من بلد
إلى آخر وإنشاء روابط عائلية
جديدة، وزيجات مختلطة
العرق، فجدته لأمه، أم العبد
ساكي، من أصول أوزبكية،
وخالاته اللبنايات تزوجن
بفلسطينيين وعشن في بلاد
كنعان.

تبدو الذكريات المنتقاة
كأنها تسير في خط درامي
تصاعدي؛ فثلاثينيات القرن
العشرين هي أيام استقرار
نسبية تعكس حال المدن
الفلسطينية الكبيرة، ولا سيما
يافا الضاجة بالحياة، حيث
المدارس (ومنها العامرية
بخيرة أساتذتها، التي
ارتادها شفيق الحوت
وفاروق القدومي وصلاح
خلف وإبراهيم أبو لغد،
ورجائي بصيلة، والتي كانت
تُعد أفضل مدارس فلسطين)
والتعليم، وتعايش
المسيحيين والمسلمين
واليهود، ودور النشر
والصحف ("فلسطين"،
و"الدفاع"، وغيرها)،
وصالات السينما (٤ دور
عرض)، وأشهرها سينما
الحمراء التي غالباً ما
استقبلت الفنانين المصريين
المكرسين، مثل يوسف وهبي
وأمينة رزق وأم كلثوم. لكن

النذر السوداء بدأت تلوح في
الأفق مع الحرب الكونية
الثانية، إذ عاشت يافا
أجواءها (صفارات الإنذار،
وصوت الطائرات، وارتفاع
الأسعار... إلخ). وفي هذه
المناخات شكلت القراءة
الحرّة، بتشجيع من الوالد،
مدير المدرسة العامرية،
هوية نبيل شعث الوطنية.
يعرض الكاتب مصادر
ثقافته الغنية في مصر: من
الروايات إلى كتب التاريخ
والسّير، كأنه بذلك يلتزم
نصيحة والده له بأن "ليس
للفلسطيني أمل في تحرير
بلاده إلا بالتمايز والتفوق"
(ص ٧٠)، وإدراك العالم
الواسع ومدخله تعلّم اللغة
الإنجليزية، وكان للفتى ذلك
في بريطانيا نفسها.
خلال الفترة ١٩٥٢ -
١٩٥٣ تعرّف ابن الأربعة
عشر ربيعاً إلى جماعة
الإخوان المسلمين المصرية،
بسبب اهتمامهم آنذاك
بقضية فلسطين، وهو كسائر
أبناء بلده كان يبحث عن
إطار يناضل من خلاله.
ويسجّل أن عدداً كبيراً من
مؤسسي حركة التحرير

الوطني الفلسطيني ("فتح")
 أتى من رحم الإخوان
 المسلمين مثل، خليل الوزير
 (أبو جهاد) وصلاح خلف (أبو
 إياد) وكمال عدوان وأبو
 يوسف النجار، كما أتى خالد
 الحسن (أبو السعيد) من حزب
 التحرير الإسلامي، وفاروق
 القدومي (أبو اللطف) من
 حزب البعث.
 يسرد الكاتب أول لقاء له
 بياسر عرفات، رئيس رابطة
 الطلاب الفلسطينيين في
 خمسينيات القرن المنصرم،
 ورفاقه، في منزلهم، وإعجابه
 به وشعوره وقتها بأنه "رئيس
 الفلسطينيين" (ص ٨١). ومع
 اشتداد الصراع بين النظام
 المصري وحركة الإخوان التي
 تغيرت توجهاتها، غادرها
 نبيل "عن اقتناع" (ص ٨٤).
 وبدلاً من رغبته في الالتحاق
 بكلية الحقوق ودراسة
 القانون، رضخ لرغبة والده
 والتحق بكلية التجارة التي
 قد تفتح له آفاقاً أكبر
 للمستقبل، وذلك في سنة
 ١٩٥٤، وكان هذا مناسبة
 لتكوين صداقات وزمالات،
 واختبار الحب الأول الذي
 انتهى بالزواج.

كانت سنة ١٩٥٦ ملأى
 بالأحداث الجسام في مصر،
 ولا سيما العدوان الثلاثي
 الذي أدى نجاح عبد الناصر
 في تجاوزه إلى حالة نهوض
 قومي. ففي "القاهرة وغزة،
 كان هناك حراك وإرهاصات
 ولادة أمل فلسطيني جديد"
 (ص ١٠٠)، عبّر عن نفسه في
 البحث عن إطار فلسطيني
 للنضال. وترسخت لدى
 الشباب والقيادات
 الفلسطينية، في سنة ١٩٥٧،
 فكرة الكفاح المسلح لتحرير
 الأرض المغتصبة، فانطلقت
 التنظيمات المستقلة،
 و"انبثقت فُتحُ في هذه
 الفترة" (ص ١٠٢)، في مناخ
 من المد القومي العارم توجّ
 بإعلان الوحدة بين مصر
 وسورية في سنة ١٩٥٨،
 وولادة الجمهورية العربية
 المتحدة التي عُقدت عليها
 الآمال الكبيرة إزاء قضية
 فلسطين.
 يُطلق شعث على فترة
 ١٩٥٨ - ١٩٥٩ "سنة البحث
 عن هوية ومهنة" (ص ١١٢)،
 أي الهوية السياسية التي
 تقرّبه أكثر من فلسطين. وفي
 سويسرا، البلد الذي تدرّب فيه

على الأعمال المصرفية آنذاك،
 أدرك أن فلسطين غائبة
 كقضية عن النقاش الدولي
 المنشغل بالثورة الجزائرية
 وبالجمهورية العربية
 المتحدة، كما أدرك أنها "لا بد
 لها أن تعود" (ص ١١٧).
 ويعتبر شعث أن تجربته
 في العمل الطلابي كانت
 "تدريباً مكثفاً في القيادة
 والعمل السياسي وبناء
 المؤسسات" (ص ١٩٣)، ومن
 مساهماته في هذا الأمر
 نجاحه في إجراء مناظرات
 مع الإسرائيليين في أميركا،
 وصلاته بيهودها التي بدأت
 من مقاعد الدراسة، فقد
 توصل من الحوارات مع
 بعضهم إلى طرح أفكار بشأن
 "الدولة الديمقراطية
 اللاطائفية" (ص ١٩٧)،
 والتي طرحها باسم حركة
 "فتح" في مؤتمر نصره
 الشعوب في القاهرة في آخر
 كانون الثاني/يناير ١٩٦٩.
 في سنة ١٩٦٥، التحق
 شعث في مصر بالمعهد
 القومي للإدارة العليا، وكانت
 تجربة غنية تخللتها زيارات
 للجزائر التي ساندت بفاعلية
 فائقة حركة "فتح" خاصة،

النجار، وتأرت لهم حركة "فتح" في عملية سافوي في ٦ آذار/مارس ١٩٧٥ في وسط تل أبيب بعملية فدائية قادتها دلال المغربي. يكتب شعث عن حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣ السورية/المصرية ضد إسرائيل بصفتها حرباً جوهرها الانتقال من "مرحلة الدفاع الاستراتيجي إلى مرحلة الهجوم الاستراتيجي" (ص ٣٤٨)، ويكشف أن الرئيس السادات بلغ القيادة الفلسطينية بموعدها، وأنه طلب منها المشاركة، قائلاً لها: "إننا سننتصر وسوف نذهب معاً إلى مؤتمر السلام" (ص ٣٤٩). لكن نهاية الحرب وتداعياتها وضعت الفصائل الفلسطينية أمام مسألة "التسوية"، فكانت نقاشات وحوارات وخلافات، ثم حُسم الموقف الفلسطيني بعد حوار داخلي طويل في الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة (سنة ١٩٧٤)، فيما سُمي البرنامج المرحلي ذا النقاط العشر. وكان شعور نبيل أن المرحلة المقبلة

شعث بالعمل الخارجي، وكان إلى جانب أبو عمار في بيروت. وقد انشغل نبيل في مرحلة بيروت (١٩٦٩ - ١٩٧١) المهتدة بخطر الطائفية والحرب الأهلية والخطر الإسرائيلي، بمهمات التعليم في الجامعة الأميركية، ثم تولى رئاسة مركز التخطيط، وصار مسؤول الإعلام الخارجي، عندما كانت عاصمة لبنان، بيروت، "مركزاً للإعلام الدولي في الشرق الأوسط" (ص ٢٧٩).

يصف الكاتب تلك الفترة (سنة ١٩٧١)، بأنها كانت "ربيعاً فلسطينياً حقيقياً في لبنان" (ص ٣٢٤)، في العمل والتخطيط واقتراح المشاريع. بيد أن الإرهاب الإسرائيلي كان في المرصاد، فاستُهدف القادة الفلسطينيون، واغتيل غسان كنفاني (سنة ١٩٧٢)، ونجا أنيس صايغ من طرد ملغوم وكذلك بسام أبو شريف في لبنان، وفي الخارج اغتيل وائل زعيتري. وفي سنة ١٩٧٣، وفي قلب بيروت، اغتيل كمال عدوان وكمال ناصر وأبو يوسف

وقضية فلسطين عامة، ولبيروت (سنة ١٩٦٩) التي عجت بالحراك السياسي المتنامي.

وعمل الكاتب في مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، الأمر الذي أتاح له أن يوثق صداقاته بأحمد بهاء الدين ومحمد حسنين هيكل، وكان الأول قد اقترح إنشاء فريق عمل "حول فكرة إنشاء الدولة الفلسطينية المستقلة في الضفة الغربية وغزة". وفي تلك الأثناء قاتلت "فتح" وبنيت القواعد، وبدأ الترويج لشعار "حرب الشعب بأسلوب حرب العصابات" (ص ٢٥٢)، وكانت معركة الكرامة البطولية (١٩٦٨) ملحمة أسطورية عززت ثقة شعث، وحفزته على العودة إلى ممارسة مهمات كفاحية تخدم "فكرة" أعلنها أبو إياد، وهي "دولة فلسطينية ديمقراطية على امتداد فلسطين التاريخية، ويعيش فيها العرب واليهود في وفاق من دون أي تمييز" (ص ٢٥٧). في سنة ١٩٦٩ كُلف

صعبة ويجب الاستعداد لها. طلب أبو عمار من شعث الإعداد لرحلته الشهيرة إلى نيويورك في سنة ١٩٧٤، بسبب تجربته الأميركية وإجادته اللغة الإنجليزية، في وقت رأى قائد الثورة أن الأمم المتحدة السيئة الصيت في التعامل مع قضية فلسطين، بدأت تشهد تغيراً واضحاً بانضمام أعضاء جدد من دول أفريقيا وآسيا والكاريببي، وأنه لا بد من إعادة إدراج فلسطين بنداً في جدول أعمال الأمم المتحدة. ونجحت المجموعة المكلفة،

والتي ضمت فريق مستشارين منهم فايز صايغ وبرهان حماد وسعادات حسن، في إقناع الأمم المتحدة بإصدار قرار تدعو فيه منظمة التحرير، "الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، لمخاطبة الجمعية العامة حول مسألة فلسطين" (ص ٣٩٨). ولأن الحدث كبير، تشكلت هيئة للإشراف على صوغ خطاب أبو عمار، ضمت في عضويتها إلى شعث، كل من: أبو إياد وأبو جهاد وأبو السعيد وأبو اللطف ومحمود

درويش وشفيق الحوت وصلاح الدباغ، بينما قدمت اللجنة القيادية في مركز التخطيط النصح، وكانت تضم: محجوب عمر ومنير شفيق وطاهر عبد الحكيم وميشيل كامل وحسن الشريف، وفريق الأبحاث. وأتى الخطاب تاريخياً، وما زال صدى كلماته يرن في الأروقة: "الحرب تندلع من فلسطين، والسلام يبدأ من فلسطين"، و"لا تسقطوا غصن الزيتون الأخضر من يدي".
عفيف عثمان
كاتب وباحث لبناني

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

رام الله العثمانية: دراسة في تاريخها الاجتماعي

١٩١٨ - ١٥١٧

سميح حمودة

تقديم: سليم تماري

٤٢٥ صفحة ١٢ دولاراً